تواصل (المدى) نشر هذا الكتاب الذي يقدم صورة عن ذكريات وانطباعات وآراء بول بريمر حول فترة عمله في العراق وتهدف (المدى) عبر ترجمتها ونشرها الكتاب إلى إتاحة الفرصة لقرائها للاطلاع، كما تتيح المجال للباحثين والمحللين وسواهم من المعنيين لمراجعة مادة الكتاب فكرياً ونقدياً.. وبهذا تؤكد (المدى) ان جميع الآراء والمعلومات التي يقدمها بريمر هنا هي تعبير عن وجهة نظره الشخصية التي لا تلتقي مع وجهة نظر (المدى) التي واكبت فترة حكم بريمر وما بعدها بالنقد الصريح المعروف عن الجريدة وعن سياستها الواضحة في هذا المجال.

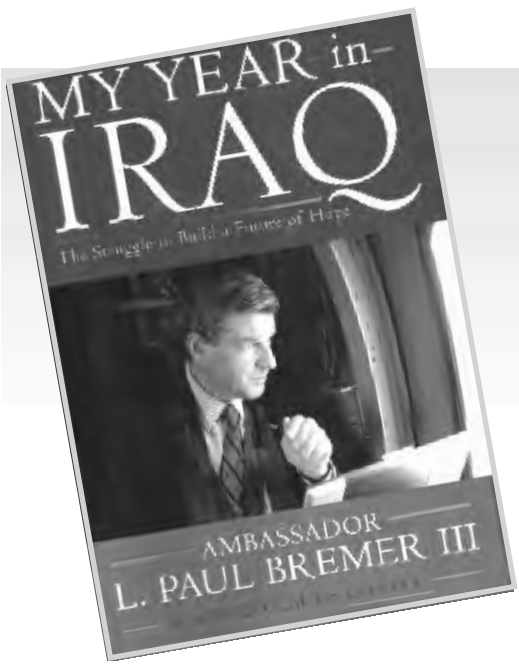

كتاب بول بريمر الصادر حديثاً حول تجربة عمله في العراق

سنتي في العراق

الصراع لبناء مستقبل من أمل

تأليف/ بول بريمر
ترجمة /د. عابد اسماعيل

(الحلقة السابعة و العشرون)

الفصل الخامس

" غير أنّ هامر أعلم رامسفيلد "بأنني صُعقتُ لاكتشافي القيود والضوابط التي يضعها المستوى الأدنى من موظفيك على إنجاز العقود وتوفير التمويل. إن مكتب الإدارة والميزانية ينفق عشرة أيام على الموافقة على طلبات التمويل، بعد أن تكون أنت (رامسفيلد) قد وافقتَ عليها. إنهم يطلبون مستوى من التفاصيل لا أعتقد، بصراحة، أنه يمكن الدفاع عنها." وحضّ بقوة رامسفيلد على أن "يستغل هذه الفرصة لإزاحة المكتب والإدارة الميزانية عن كاهله الآن ...من أجل إعطاء مدير سلطة التحالف المؤقتة المزيد من المرونة التي يحتاج إليها."وعلى هذا الاقتراح، لا أملك سوى أن أقول "آمين."

في السابع من تموز، بعثتُ بمذكّرة إلى رامسفيلد، أثبتُ فيها بأن إجراءات مكتب الإدارة والميزانية "تجعل جهودنا في الإسراع في عملية إعادة تأهيل الاقتصاد العراقي أكثر صعوبةً، وأكثر هدراً للوقت." كما أنني ذكّرته بأن واشنطن بدت بطيئة للغاية، في تعيين أفراد وكوادر تحتاج إليهم سلطة التحالف المؤقتة، إذ من أصل ٢٥٠ شخصاً طلبتهم قبل أسابيع، لم يصل شخص واحد منهم إلى بغداد. إن تباطؤ واشنطن سوف يؤخّر تمويل إعادة البناء، والأفراد، إلى أكثر من سنة تقريباً.

كان الاعتراف بالتحديات التي تواجهنا شيئاً، يختلف عن التفكير بحلول لها. بعد أسابيع من وصولي إلى العراق، كان واضحاً أننا نحتاج إلى خطة شاملة للعمل، خاصة أنّ خطط واشنطن الموضوعة قبل الحرب، لم تصمد طويلاً. كما أنني كنت مدركاً بأن خطة مفصلة ومنظّمة سوف تعطي إرشادات للآلاف من الناس في سلطة التحالف المؤقتة، والذين وزّعوا في اتجاهات مختلفة، بسبب العديد من المشكلات العاجلة. ومع غياب الحسّ بالأولويات، كنا نغامر بعجلة طائشة، غير منتجة.

كنتُ أريد أن أعرض على زملائي، وعلى أولئك الذين في واشنطن، رؤيةً واضحةً عما يريد التحالف أن يحققه، مع الأدوات اللازمة لكيفية تحقيق هذه الأهداف.

لذلك طلبتُ من بات كيندي وكلاي ماك منواي أن يشرفا على استصدار خطّة استراتيجية تظهر الأهداف والجداول والأسس التي تتطلبها المهمّة. وقد شكّل أحد كبار الموظفين في وكالة وزارة الخارجية للتطوير الدولي ديتون مكاسول فريق عمل في مكتبنا الجديد للتخطيط الخارجي لتأليف خطّة عملٍ سياسية، تستطيع أن تضع أهدافاً محدّدة، لطيف من المشاكل التي نواجهها، ويواجهها الشعبُ العراقي.

"أنا تهمني النتائج،" قلتُ لديتون، "لا النظريات أو الجدل الذي لا ينتهي. لقد أتخمني القادة السياسيون العراقيون من هذا للتوّ." هذا كان أصل خطتنا الاستراتيجية، وهي رؤيا طموحة لمستقبل العراق، والخطوات الملموسة التي نحتاجها لإحداث التحول في بلد ممزق، والوصول إلى مجتمع مدني مزدهر، عادل، ويعيش بسلام. وقد أثبت التخطيط بأنه مهمة شائكة وكبيرة، والتي كان يترتب على فريقنا وضعها قيد التنفيذ، بسرعة وحرفية في آن معاً.

في أوائل تموز، أصدر مكتب ديتون مسودة خطةٍ أسماها "رؤيا لتقوية العراقيين." وقد أحلتُها إلى وزير الدفاع رامسفيلد، في الرابع من تموز كخطّة أولى لمد جسر التواصل مع البيروقراطيين في واشنطن، والبيت الأبيض، والكونغرس في أواخر هذا الشهر.

وقد لخّصنا الغاية القصوى بأننا نتصور "سلاماً دائماً لعراق ديموقراطي، موحّد ومستقرّ" يتمتّع باقتصاد حيوي، وحكومة ممثّلة، تقرّ وتحمي الحريات.

"جدارٌ شاهق جداً،" نوّه كلاي.

"الأفضل أن تصوّبَ على هدف عالٍ، وليس منخفضاً." قلت، وكنتُ أعي بأننا نطرح أهدافاً صعبةً على التحالف والعراقيين، على حد سواء. لكنني كنتُ أعي أيضاً الحاجة إلى تقديم رؤيا إيجابية للعراقيين، ولفريق سلطة التحالف، وللعالم. وكان البديل إلى التشاؤم، هو الاستسلام الذي لا ينتج عنه سوى الشلل.

وقد حدّدت الخطةُ الهاجسَ الأمني كأولوية. فالعراق للعراقيين، وكلما استطاعوا أن يدافعوا عن أنفسهم، كان ذلك أفضل. وبالتالي كان يجب أن ندرّبَ قوة شرطة محترفة بأسرع وقت ممكن، وننتقل مباشرة إلى تجنيد وتدريب الجيش العراقي الجديد.

وكنّا ندركُ أيضاً أنه يترتّب علينا أن نُظهرَ تحسّناً في الحياة اليومية للعراقيين. لهذا أرسينا سلسلة من الأهداف في قطاع "الخدمات الأساسية"، التي يجب أن تكون جاهزة خلال تسعين يوماً. في الأول من تشرين الأول، وضعنا خطة لإعادة توليد الطاقة، وإرجاعها إلى مستوياتها قبل الحرب. كان يجب أيضاً أن نرمّم آلاف المدارس وإعادة فتح مئتين وخمسين مشفىً في البلاد. علينا أن نوزّع الكتب المدرسية، مطهّرة من الأيديولوجية الصدامية.

كنا نعي أيضاً أن الانتقال التام إلى اقتصاد السوق يتجاوز مهمّة التحالف. إن أربعة عقود من الخراب الاقتصادي لا يمكن أن تُعالَج خلال فترة ما كان يُظن بأنه احتلال قصير الأمد. لكن، يمكننا أن نبدأ الآن، ونضع العراق على مسار التنمية، في الوقت الذي نوفّر فيه زخماً لاقتصاد السوق. وكان أحد الأهداف هو إعادة إنتاج النفط إلى المستويات التي كان عليها قبل الحرب، مع حلول الأول من تشرين الأول. ناهيك أن التحالف كان مزمعاً على استصدار عملة جديدة، تستبدل دينار صدام. كما كنا نخطط لإنشاء بنك مركزي للمرة الأولى في العراق. كما كنا نسعى إلى تحرير القوانين التجارية والاستثمارية في العراق. أخيراً، كان يجب أن نمهّد الأرضية لظهور حكومة ممثلة. كان ذلك يمثل تحدياً معقداً ويستغرق وقتاً لأنّ العراقيين لديهم تجربة قليلة في حكم أنفسهم، ويفتقرون للمؤسسات التي تدعم ذلك. وبالتالي كان يتوجّب أن نغرس فهماً جديداً بالمبادئ الديموقراطية، مع أنه لا أحد كان يتوهم بأن ذلك سيكون سهلاً. كما كنا نريد للعراقيين أن يعملوا لكتابة دستورهم.

كنت أعمل مع فريق التخطيط، ومع الجهات العسكرية، من أجل خلق أهداف محددة يمكن إنجازها خلال فترة تسعين، ومئة وعشرين، وثلاث مائة وستين يوماً، استناداً إلى أهدافنا الاستراتيجية. كان من الأهمية بمكان أن يكون هناك تقدّماً ملحوظاً على الأرض حين يذهب البيت الأبيضُ إلى مجلس الشيوخ من أجل طلب المزيد من الدعم، وحين نحضر، أنا وكولن باول، المؤتمر الذي دعت إليه الأمم المتحدة في شهر تشرين الأول لضمان دعم مالي دولي من الدول المانحة، في إعادة بناء العراق.

وكما أوضح ديف أوليفر، فإن عائدات النفط لم تكن كافية لتغطية نفقات الحكومة العراقية. بل إنه توقّع بأننا سنفلس في أوائل ٢٠٠٤، ولسوء الحظ، كانت كل مادّة على قائمة أولوياتنا، من تدريب الشرطة إلى بناء المدارس، تكلّف مالاً.

وخلال عملية تطوير خطتنا، وطلب المزيد من المساعدات الإضافية، كنا نحتاج لأن نبقى على اتصال مع عمل البنك الدولي. كان البنك قد أرسل لتوه خمسة عشر "فريق تقييم" إلى العراق، كل منها أنيطت به مسؤولية تقدير الأموال التي يحتاج العراق إليها لإعادة بناء قطاع الطاقة، وقطاعي الثقافة والتصنيع- وعشرات الجوانب الأخرى من اقتصاد ممزق. في أواخر تموز، ناقشتُ العملية على الهاتف مع جيم ولفنسون، رئيس البنك الدولي.

"جيم، أعرف أن البنك يسمح بفترة ستة أشهر لأعمال التقييم،" قلتُ. "لكننا نحتاج لأن تُنجز هذه الأشياء بسرعة أكبر، وبالتالي نستطيع أن نعتمد على خبرتك في تقدير اقتراحاتنا لمساعدات إضافية."

"أفهم ذلك. متى تريد هذا؟"

"حسنٌ. خلال ستة أسابيع- بدلاً من ستة أشهر. كل شيء هنا يجري وفق التوقيت العراقي، يا جيم."

وبضحكة قصيرة، أجاب ولفنسون، "سوف أحاول أن أفعل كلّ ما بوسعي."

وقد فعل هذا، أيضاً. واختصر البنك عمليات التدقيق من أسبوع إلى يوم واحد- ولم يكن هذا بالإنجاز القليل في صيف بغداد. واستنتج بأن العراق يحتاج من ٥٥ إلى ٧٥ مليار دولار لإعادة البناء.

بعد الاتصال بجيم، حيث كانت حرارة بغداد ترتفع مع ارتفاع ضجّة حركة المرور في شارع أبي نواس، في الجهة المقابلة للنهر، شعرتُ بأننا أخيراً بدأنا نحرز بعض التقدم. دوّت طائرة فوقنا، محلقة على ارتفاع منخفض فوق سطوح المنازل، لكي تتجنب النيران الأرضية، هنا تماماً في قلب المدينة. كانت التهديدات بهجمات صواريخ أرض-جو قد أجبرتني، هنا، على تأخير إعادة افتتاح مطار بغداد الدولي أمام حركة الطيران التجارية. الآن، كانت الطائرة (C-130)التي تحاول الهبوط، تدور في حركة حلزونية حادّة، من أجل أن "تخدع" الصواريخ المحتملة، الموجهة حراريا.

إننا في حالة سباق، قلتُ في نفسي. كان الانتعاش الاقتصادي وإعادة البناء، وإنشاء حكومة ممثلة، مرتبطة جميعها بالأمن. إن مخرّباً واحداً يتسبّب بفتحة في أنبوب نفط بواسطة بقايا قنبلة يمكن أن يوقف إنتاج الوقود، والتي يمكن ان تشلّ شاحنات النقل في محافظات عديدة، كما تُسبّب تعطيل المدارس، وإعادة بناء المستشفيات، وتدفق كبير للدولار لشراء الوقود من الكويت وتركيا. كما أن استمرار انفجار السيارات الملغومة، وهجمات القناصة، يجعل الأمر أكثر صعوبةً وتكلفةً في تعيين مقاولين أجانب.

ومع مرور الصيف، وصلتُ إلى قناعة بأن بعض الجهات في واشنطن كانت لا تزال تقلّل من تعقيد التحدّي القائم، وكانت تتوهم أننا نستطيع أن نحل مشاكلنا من خلال نقل السلطة، بكل بساطة، إلى مجلس الحكم العراقي، وكأنّ تلك المجموعة يمكنها أن تتغلب على قضايا اقتصادية وسياسية وأمنية، متشابكة، في حين لا نقدر نحن في سلطة التحالف المؤقتة على أن نقوم بها.

هذا النوع من التفكير الحالم لم يكن يبشّر بالخير.

كانت غرفة الطوارئ في البيت الأبيض، بزواياها الخشبية، أكثر برودة من مكاتب البنتاغون، حيث كنتُ أمضيتُ سحابةَ النهار الفائت، مجتمعاً مع دون رامسفيلد وفريق عمله. إنه يوم الثلاثاء، ٢٢ تموز، وأنا أستعد للاجتماع مع نواب مجلس الأمن القومي، وقد ترأسه الرجل المراقب لشؤون العراق، نائب رايس، ستيف هادلي. كان بول وولفويتس يمثل وزير الدفاع، ونائب وزير الخارجية ريتش أرميتاج كان يشغل كرسي وزارة الخارجية، والجنرال البحري بيت بيس، شغل مقعد الجنرال مايرز. كنا في صدد الإعداد للتفاصيل الكثيرة، من أجل اجتماع مجلس الأمن القومي، في اليوم التالي، والذي سيترأسه الرئيس. كانت الخطة الاستراتيجية لسلطة التحالف المؤقتة والآليات الموجبة لتقديم طلبات المساعدات الإضافية هي ما يتصدر جدول الأعمال.

كان هادلي، الذي عرفتُهُ منذ عشرين عاماً، مسؤولاً حكومياً يحظى باحترام جيد، ويجنح في عمله إلى الدقة والولاء. كان يدير اجتماعات منتجة، فعّالة. وقد بدا راضياً عن درجة ومستوى التفاصيل التي قدّمتها الخطةُ الاستراتيجية. ثمة الكثير مما يلبي "الزوايا الصحفية والتصريحات الإعلامية،" قال مازحاً.

"أعتقد أننا سنصطدم ببعض المشاكل مع الديموقراطيين،" أشرتُ. "هذا الصباح كنتُ في بناية مجلس الشيوخ، أطلع مجموعةً من الأعضاء على خطتنا، حين هاجمتنا النائبة نانسي بيلوسي، زاعمةً أنه "لو كانت لدينا خطة، لما كان جنودنا يموتون هناك." والسيدة بيلوسي هي زعيمة الأقلية النيابية في المجلس، وهي سياسية مخضرمة، من ولاية كاليفورنيا. قلتُ إنّ عضو مجلس شيوخ آخر، هو الجمهوري بيتر كروس، من ولاية فلوريدا، قد أنكر هذا التأكيد من خلال الإشارة إلى أنني أتيتُ إلى مبنى الكونغرس لمناقشة الخطة الاستراتيجية التي زعمت هي بأنها غير موجودة. وأضاف كروس بأنّ الجنود معرضون للموت دائماً طالما أنه يوجد لدينا جيش في العراق.

لقد كان التحرك باتجاه منح العراق سيادة قوية، حقيقية، هو أحد أهدافنا الرئيسية. وقد شعر أرميتاج بالثقة لأنّ وزارة الخارجية ظلت تتبعُ سياسة لَي الأذرع، والاعتماد على الأمم المتحدة وجيران العراق المسالمين- "توسيع المسالك،" وفق الخطاب السياسي- والذي سيساعدنا على الجبهتين، السياسية والديبلوماسية.

كنا نتهيأ لمناقشة الجوانب الخفية، المتعلّقة بالحصول على الدعم المالي، حين دخل بهدوء مساعدي الخاص بريان مكورماك قاعةَ الاجتماع، عبر باب جانبي، ومرّر لي قصاصةً مكتوبة.

"يؤكّد الجنرال سانشيز أنّ الرقمين اثنين وثلاثة قد ماتا." قرأتُ.

كان نجلا صدام، عدي، وشقيقه الأصغر قصي، المسؤول عن جهاز الاستخبارات العراقية، قد قُتلا. إنه عمل عظيم قامت به قواتنا، وقد جنى برنامج المكافأة ثماره.

كان مقتل عدي وقصي فاتحة للتخفيف من المخاوف الرابضة فوق صدور العراقيين. والمعروف أن نجلي صدّام كانا شيطانين سفّاكين. كان عُدي، المعروف بشهوانيته، يقتحم حفلات الأعراس، ويأمر أعوانه بجر العروس، وجلبها إليه لاغتصابها. وكانت لدينا معلومات بأنّ ابني صدام يساعدان في تنظيم بعض المقاومة المعادية للتحالف.

حين أعلنتُ هذه الأخبار، رجّت قاعة الاجتماع، المعروفة بهدوئها، بالتهليل والتصفيق.

وكان لدي إثبات مباشر عن سادية عُدي. كان من برامجي الأولى في العراق إعادة بناء البنية التحتية للرياضة العراقية، والتي كان قد أخضعها عُدي للسياسة بالكامل. كانت غايتنا إرجاع العراق إلى حركة الأولمبياد، في الوقت المناسب، لكي تتاح له المشاركة في أولمبياد أثينا، بعد عام. وقد عينتُ أحمد راضي، أشهر لاعب كرة قدم في العراق، للإشراف على هذه المهمّة. ذات يوم، حين ذهبتُ إلى الملعب الأولمبي القديم لأنضمّ إلى راضي في تمرير أول كرة من أصل ستين ألف كرة إلى الشبان العراقيين، أخبرني راضي كيف كان عُدي يمارس التعذيب المنظّم على أعضاء الفريق الوطني، حين جلبوا "العار" إلى العراق بعد خسارتهم إحدى المباريات، ومرةً أجبر راضي على رفس كرة من الإسمنت لمدة عشرين ساعة متواصلة.

هرعتُ الآن إلى البنتاغون لأسمع قصة موتهما. قاد أحد المخبرين جنوداً من قوات العمليات الخاصة، وقوات السلاح الجوي المحمول (١٠١)، إلى فيلا ضخمة، لكنها عادية المظهر، تقع في الموصل، حيث كان نجلا صدام يختبئان. حين حاصرت القوات المنزل وطلبت منهما الاستسلام، رفضا، وفتحا، عوضاً عن ذلك، نيران أسلحتهما الأوتوماتيكية، واستخدما القنابل، وأوقعوا عدداً من الجرحى في صفوف الجنود الأمريكيين. ردّت القوات الأمريكية بإطلاق صاروخين موجهين بشكل جيد من طراز (TOW)، واستخدمت أسلحة رشاشة ثقيلة، ونسفت الفيلا. يرقد الآن جثمان الشقيقين في منشأة في مطار بغداد، لتشريحهما.

حين أعلن الجنرال سانشيز مقتلَ الأخوين، ونشر صوراً بالفيديو عن الحادثة، نقلت الأنباء الرئيسية، التلفزيونية، على مدى أربع وعشرين ساعة، أخبار الحادثة. اتصل كلاي في وقت متأخر من تلك الليلة، ليخبّرني أنه عندما أذاعت محطة تلفزيون التحالف أنباء مقتل الشقيقين، انطلقت العيارات النارية في كل المدن العراقية، احتفالاً بالخبر.

يتبع

> ونوّه المسؤول السابق في إدارة كلينتون بأنه، وبالرغم من هذه الأوضاع، "فإنّ سلطة التحالف تحرز تقدماً مذهلاً، لكنها تفتقر للقوات، والأموال، والمرونة لإنجاز المهمة." وأشار إلى أنّ "سلطة التحالف المؤقتة مكبّلة بالرّوتين فيما يتعلق بالنظرة إلى آليات عمل الحكومة." ثمّ أضاف بأنّ نظام الميزانية الأولي الذي وضعته السلطة يمكن وصفه "بإنجاز باهر، في وقتٍ مبكر، ضمن هذه الظروف المعقدة.